

ملخص محاضرات وحدة التواصل الحضاري

بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء

في العصر الحديث

السنة أولى ماستر

تخصص: الجزائر في العصر الحديث

أ. عثمانى أم الخير

لم تقتصر علاقات الجزائر على الشرق الإسلامي أو البلدان المغاربية؛ بل تجاوزتها إلى فتح علاقات مع بلدان إفريقية، بحكم الجوار، والانتماء إلى نفس القارة، وبحكم أنّ الإسلام يجمع بين معتنقيه في كلّ مكان، فنشط بذلك تواصل حضاري بين الجزائر وبلاد السودان الغربي، كان من أهمّ مظاهره، ازدهار النشاط التعليمي، وتجلّى اهتماماته فيما أنجز من مؤسسات تهتم به كالأزوايا والمدارس وغيرها.

مفاهيم:

السودان الغربي: كلمة تطلق على المنطقة المحصورة بين المحيط الأطلسي غربًا والمحيط الهندي شرقًا، والصحراء الكبرى، كما يطلق على جميع الأقاليم شبه الصحراوية، من إفريقيا التي انتشر فيها الإسلام جنوبي الصحراء، ومصر. تضمّ بلاد السودان مايلي:

- 1- السودان الشرقي: مناطق النيل، وروافد جنوب بلاد النوبة.
 - 2- السودان الأوسط المناطق المحيطة ببحيرة تشاد
 - 3- السودان الغربي: حوض السنغال، وغامبيا، وفولتا، والنيجر الأوسط.
- ومن أهمّ ممالك السودان الغربي الإسلامية:
- 1- مملكة مالي.
 - 2- مملكة السنغاي (أهمّ مراكزها: جني - غاو - تنبكتو).
 - 3- مملكة غانا.

1- العوامل التي أسهمت في التواصل الحضاري بين الجزائر وإفريقيا جنوب

الصحراء:

اجتمعت عدّة عوامل لربط الجزائر بالقارة الإفريقيّة تحديداً إفريقيا جنوب الصحراء منها: الطبيعّية والتجاريّة، وغيرها، ولكنّا سنركّز عل التواصل الحضاري بينهما الذي نشّطته عدّة عوامل أهمّها:

- حركة انتشار الإسلام إلى إفريقيا جنوب الصحراء، من المغرب الأوسط نحو بلاد السودان الغربي.
- وجود وحركة القوافل التجاريّة، ومعها قوافل الحج.
- انتشار نشاط الصوفيّة.
- دور الفقهاء والعلماء وشيوخ الزوايا في نشر الإسلام ومعه التعليم.
- الهجرات بين الطرفين للعلم ولغيره.
- نشأة المدارس وجهود الشيوخ في العمليّة التعليميّة عن طريق تقديم الدروس.
- ومن أشهر المناطق التي حظيت بهذا الشرف، توات، وتلمسان وغيرها.

2- دور علماء توات الجزائريّة في التعليم ببلاد السودان الغربي:

توات، كلمة أصلها أعجمي، أطلقته قبائل لمتونة، عندما لجأت إلى الإقليم في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وهناك روايات أخرى مفادها أنّ توات، كلمة ترجع إلى قبائل المثلثين في الصحراء... المثلثون هم قبائل الصحراء بالجنوب، عُرفوا بهذا الاسم لأنّهم يتلثمون بلثام أزرق ومنهم التوارق، لمتة، لمتونة، التوات.

تحتلّ منطقة توات موقعًا جغرافيًا بين شمال الصحراء والساحل الإفريقي
المسمّى بلاد السودان، اجتمع في إقليم توات العلم والإمارة والديانة والريادة، وانتصبت
الأسواق به والصناعات والتجارات والبضائع، ومن أهمّ الطرق التي يشرف عليها مايلي:
- الطريق الرئيسي، المتجّه من شمال الغربي نحو منطقة توات مرورًا بسجلماسة
وتبليالة إلى بودة.

- الطريق المتجّه من تلمسان إلى بودة مرورًا بمنطقة واد الساورَة أشهرها: أهمّ الطرق
التي تربط أرض توات بغرب إفريقيا.

تقع توات في الصحراء الجزائيّة، بالضبط بولاية أدرار، كان لعلمائها تميز في
الحركة العلميّة بالسودان الغربي، والسودان الأوسط، بحكم الموقع، والعامل
التاريخي، فنشطت العلاقات بين تنبكتو، وجاو، وأودغست.

كما كانت هذه المناطق قنوات للاتصال ومناطق عبور رئيسة لقوافل التجارة،
والحج، ومن أشهر العلماء والصلحاء القادمين من توات إلى تنبكتو، الشيخ سيدي يحي
التادلسي (ت877هـ/1387م) الذي تتلمذ عليه الشيخ محمّد بن عبد الكريم المغيلي
المالكي المذهب.

والشيخ أبو القاسم التواتي؛ إمام جامع تنبكتو.

3- المجهودات التعليميّة لعلماء تلمسان في افريقيا جنوب الصحراء:

اشتهرت تلمسان بنشاطها التعليمي، فاشتهر علماؤها بالتدريس في مدارس
السودان الغربي، ونذكر منهم: الشيخ محمّد بن عبد الكريم المغيلي (ت840هـ/1434م)

الذي ظهر في أواخر العهد الزياني، هو محمّد بن عبد الكريم بن محمّد بن عمر بن مخلوف بن علي بن الحسن بن يحيى بن علي بن أحمد....ينتهي نسبه إلى الحسن بن فاطمة الزهراء -رضي الله عنها- ولد في مدين مغيلة التابعة لبلدي مغيلة (مغيلة قرية بربرية تقع بالقرب من تلمسان) مولده (831هـ/1429م).

عاش في وقتٍ كانت تلمسان فيه تتخبط في مشاكل وأحداث، وتقلبات سياسيّة خطيرة داخليًا وخارجيًا، صراع بين الأمراء والسلاطين الزيانيين على السلطة، وبين الأعراش، والقبائل المجاورة للمدينة حول المشاكل السياسيّة والاقتصاديّة، وحول التنفيذ السياسي لدى العرش الزياني.

نشأ في أحضان عائلة علمٍ وتقوى وتصوف، وترعرع برعاية شيخ مغيلة، محمّد بن أحمد بن عيسى المغيلي، الشهير بالجلاب، وحفظ القرآن عليه، وأخذ مبادئ الفقه المالكي كالرسالة، ومختصر خليل، وابن الحاجب، وابن يونس.

اعتكف على دراسة العلوم العربيّة الإسلاميّة، اللغويّة والدينيّة والعقليّة، ثمّ سافر إلى بجاية التي كانت مركزًا ثقافيًا يعجّ بالطلاب الوافدين من كلّ جهة، فدرس على علمائها التفسير والحديث، والفقه المالكي وأصوله وعلوم العربيّة، ثمّ اتّجه إلى الجزائر، حيث مدرسة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، فأخذ عنه التفسير، والقراءات، وعلم التصوف.

لاحظ خلال اشتغاله بالتدريس في تلمسان التعقّن السياسي الذي يسود عرش بني زيان والتفسّخ في مجتمع المدينة الزيانيّة، وتكالب القوى الأوربيّة ضدّ البلاد وموانئها

ومدنها الساحليّة، ثمّ غادر تلمسان إلى السودان الغربي في أواخر السبعينيات من القرن الخامس عشر الميلادي، وقصد واحات توات، واستقرّ بعض الوقت لدى أولاد يعقوب في واحة تمنطيط، ثمّ انتقل إلى واحة "بوعلي الهني".

وأسس هناك زاويته الدينيّة التي تحمل اسمه، قال المغيلي عند دخوله توات: "دخلنا توات، فوجدناها ديار علمٍ، ومقرّ أكابر، وأعلام فانتفعنا بهم، وانتفعوا بنا، وما ابتلينا به من محنة أخبث اليهود -لعنهم الله- وقد حمدنا الله -جلّ جلاله- على أن أهلكهم على أيدينا.

أمّا رحلاته إلى عدّة بلدان إفريقيّة، فكانت في سبيل إصلاح المجتمعات، فاتصل بعددٍ من العلماء آنذاك، ولذلك تقلّد عدّة وظائف منها: منصب قاضي الجماعة التواتيّة، فتصدّى لأخطر مسألة عرفتها المنطقة في عصره، وتباينت حولها آراء العلماء، فأفتى صراحةً بعدم جواز استحداث اليهود لهياكل دينيّة في تمنطيط وتوات.

وأصبح المغيلي إمامًا للمسلمين بهذه البلاد، حيث لاحظ تمرّك اليهود في المنطقة، وسيطرتهم على النشاط التجاري هناك، فاعتبر ذلك خروجًا عن ما يلزم به أهل الذمّة شرعًا، خاصة وأنّ نفوذهم كان أيضًا سياسيًا، فاشترى دممّ الحكام والقضاة، درس عليه عدّة طلبه من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

كان من وظائفه منصب مستشار، ثمّ رئيسًا للقضاء، والإفتاء بكانو التي دخلها في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، واتصل بأمرها محمّد بن يعقوب، ودارت بينهما محاورات انتهت بتعيينه مستشارًا للأمير، ثمّ رئيسًا للقضاء والإفتاء.

اشتغل المغيلي مدرّسًا، وواعظًا، ومرشدًا؛ إذ توجّه إلى شمال نيجيريا، ثمّ اتّجه إلى بلاد الهوسا، واستقرّ بمدينة تيقدا، حيث كانت مزدهرة بالثقافة، والفنون، وتعيّ بالتجارة، فاشتغل بالتدريس، والوعظ، والإرشاد.

واشتهر علماء آخر منهم:

- محمّد بن عيسى بن علي التلمساني: من تلمسان، من علماء القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مارس التعليم في جامع تنبكتو.
- الشيخ مخلوف بن علي بن صالح البلبالي: من بشار، من قبيلة تبلباله، هو الفقيه القاضي (توفي بعد: 940هـ-1533م)، رحل إلى مراكش، وفاس للتجارة.

4- طلب العلم بالمدارس:

بتوات كان التعليم في الزوايا، والمدارس القرآنيّة، والدُّور الخاصة، فاشتهرت حلقات العلم، لذلك ارتبط تاريخ توات الثقافي والعلمي والفكري بنشوء مراكز إشعاعيّة ثقافيّة من أهمّها الزوايا:

تعريف الزوايا:

لغة:

الزوايا، مفردّها "زاوية"، وهي مشتقة من الفعل "انزوى" ينزوي "ح بمعنى: اتّخذ مكانًا"، كما أنّها مأخوذة من فعل "زوى"، و "ازوى"؛ بمعنى: "ابتعد، وانعزل" سميت كذلك لأنّ الذين فكّروا في بنائها أوّل مرّة هم المتصوفة والمرابطون، اختاروا الانزواء

بمكاتها والابتعاد عن صخب العمران وضجيجه طلبًا للهدوء والسكون اللذين يساعدان على التأمل والرياضة الروحية، ويناسبان جو الذكر والعبادة.

اصطلاحًا:

يطلق اسم الزاوية، ويراد بها: "مأوى المتصوفين والفقراء"، والمسجد غير الجامع ليس فيه منبر.

الزاوية مؤسسة دينية إسلامية ذات طابع اجتماعي روحي، وتختلف حسب وظائفها ونشاطها، كما عرفت الزاوية على أنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية يجتمع فيها المريدون لتلقي الأوراد والذكر يقصدونها للاستفتاء والصلح بين المتخاصمين.

أمّا عن أهل توات، فتعرف الزاوية على أنها مسجد خاص بطائفة دينية من الصوفية أو ضريح لأحد الأولياء الصالحين، وفي تعريف آخر للتواتيتين يقصد بها تلك الصدقات الجارية التي يجسدها شخص ما في حياته، وتبقى قائمة بعد وفاته من خلال نص موثق تُحدد فيه طبيعتها وقيمتها لينتفع بها عامة الناس، ويشرف عليها صاحبها أثناء حياته وبعد موته يتعاقب عليها ورثته أو المقدمين لطريقة أو للزاوية.

تقسيم الزوايا حسب النشأة: تنقسم الزوايا حسب النشأة إلى فرعين هما:

الفرع الأول:

زوايا تمّ بناؤها على أرض اشترت من طرف مؤسس الزاوية خارج القصر أو القرية مثل، زاوية سيدي البكري التي بنيت قرب مدينة "تمنطيط"، وزاوية "تنيلان" كذلك التي أُسست في سنة (1058هـ/1613م).

وبعد أن غادر الحاج سيدي أحمد بن يوسف قصر أولاد أونقال، في تيجي، واتجّه إلى تنيلان لبناء زاويته هناك وكان مشهورًا في توات بـ"رزق الله الواسع"، بعلمه وفضله، وقد كتب تاريخًا مطوّلًا عن إقليم توات، وتوفي سنة (1078هـ/1669م) بتنيلان.

الفرع الثاني:

هي زوايا داخل القصر، حيث تكون أملاكها داخله مثل، زاوية كُنْتَه التي أسّسها الشيخ سيدي البكري الذي درس بأوقروت على يد الشيخ سيدي علي النحوي الأوقروتي، وأسّس زاويته المشهورة بزاجلو، وتوفي سنة (1118هـ/1708م).

تقسيم الزوايا حسب الوظيفة: تنقسم إلى ثلاثة فروع هي:

الفرع الأول:

تتمثّل في زوايا العلم، ووظيفتها تعليم القرآن للأطفال بمختلف الأعمار، وتكون عادةً قرب المسجد، وهي عبارة عن مجموعة من الأبنية في سائر القصور التواتية، وسيطلق عليها أسماء كـ "الجامع" بتوات، و"الأقريش" بتيدكلت و"المحضرة" بتينجورارين.

الفرع الثاني:

زوايا التربية، وهي مجموعة من الزوايا أسّسها رجال التصوّف مع بداية (القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي) كأماكن للعبادة والتربية والتعليم.

الفرع الثالث:

تتمثل في زوايا الإطعام والإيواء، بحيث تقوم هذه الوظيفة بجميع أنواعها فتستقبل الضيوف والزوّار، وتوفّر لهم الأكل والإيواء.

من أشهر الزوايا:

1- زاوية الإمام المغيلي التي أسّسها بقصر بوعلي على إثر الخلاف الذي وقع بينه وبين شيخ زاوية أبي يحيى النيارى عبد الله (885هـ/1480م)، وبدأ نشاطه التعليمي بها، وسرعان ما جمعت هذه الزاوية بين المهمة التعليمية والمهمة الحربية، حيث كانت الزاوية قاعدة لانطلاق جيش المغيلي لضرب قواعد اليهود، وتتلخّص مهمة الزاوية بذلك في تقديم عدّة أدوار أهمّها:

1- كانت مركزاً للعبادة والتعليم والتربية.

2- كانت مقرّاً لثاني أكبر دار للقضاء بتوات بعد مركز تمنطيط، وكانت تختصّ في الفصل في القضايا والخصومات والنوازل، وكان الشيخ المغيلي يشرف بنفسه على جميع القضايا ملتزماً بتطبيق الأحكام الشرعية الدينية.

3- اهتمّت الزاوية بالجانب الاجتماعي، فكانت مركزاً لنزول المسافرين وإيواء الفقراء وابن السبيل.

4- كانت الزاوية توفّر الأمن والاستقرار للقوافل التجارية المارّة بها.

5- كانت زاوية المغيلي مركزاً عسكرياً تجيش الجيوش لاستنهاض الهمم.

6- العمل على نشر الفكر الصوفي القادري من لال نشر الطريقة القادرية التي أخذها على شيخه عبد الرحمن الثعالبي ووصّاه بنشرها في توات والسودان الغربي.

وهناك زوايا أخرى منها:

الزاوية الكنتية التي أسّسها الشيخ أحمد بن محمّد الرقاد الكونتي (سنة 999هـ/1592م).

زاوية سيدي محمّد عمر بن محمّد صالح الأنصاري بأوكروت: أسّسها الشيخ سيدي عمر بن محمّد بن الصالح (ت1008هـ/1601م)، فتخرّج فيها علماء تواتيون.

5- مظاهر تأثير العلماء الجزائريين في إفريقيا جنوب الصحراء:

تأثّر السنغال بالحركة التعليمية والعلمية التي حملها الجزائريون، كما مارس شيوخ الطرق الصوفية نشاطهم في التدريس بالسنغال، حيث التحق المغيلي بعاصمة السنغال، فانضمّ إليه عددٌ من العلماء ليعلموا في تلك النواحي، وينشروا الإسلام، ويقاوموا العادات والتقاليد الوثنية.

- نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية.

- نشر الدعوة الإصلاحية.

- تصحيح المسارات والقواعد الفقهية، وتنقيتها من الشوائب والبدع التي التصقت بها.

- وضع قواعد أساسية للدرس القرآني والفهمي ببلاد السودان الغربي.

- نشر المذهب المالكي ودعّمه بالأنصار.
- فتح الطريق للتواصل الحضاري المستمرّ بين الجزائر، وغيرها من بلاد إفريقيا.
- ازدهار حركة التأليف من بينها، المخطوطات في كلّ الفنون خاصّة الدينيّة، من أشهرها مؤلّفات المغيلي:
 - تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلّاطين.
 - أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي.
 - البدر المنير في علوم التفسير.
 - مصباح الأرواح في أصول الفلاح.
 - تنبيه الغافلين عن مكر المسلمين بدعوى مقامات العارفين.
 - مفتاح النظر في علم الحديث.
 - شرح جُمل الخونجي في المنطق ومقدمه فيه.
 - شرح البيان.
 - رسالة الخلافة.
 - إتمام الأنجال في أحكام الآجال.
 - انتقال بعض العادات والتقاليد إلى بلاد السودان الغربي من الجزائر.
- نجحت الزاوية التواتيّة في بلوغ الهدف الذي اتبعته داخل منطقة توات، فقد طمحت إلى نقل عطائها، وإشعاعها الروحي إلى الخارج، فكان لها أثر كبير في نشر

الإسلام في إفريقيا الغربيّة، بوصول رجالها إلى مختلف شعوب القارة الإفريقيّة مبشرين بمبادئ الدين الإسلامي ومعامله الحضاريّة.

كما عمّ الإسلام كلّ التوارق، ودخلت أقوام الوثنيّة في دين الله، من السود والزنج، فوصلت بذلك مناطق عديدة من بلاد الهوسا، وتنبكتو، وشنقيط، كما ساهمت في العلاقات التي كانت بينها وبين هذه البلدان من خلال مخازنها، واحتضانها للقوافل التجاريّة، وإشرافها على الطرق المؤدّيّة إليها، وهذا ما يجعل المبادلات التجاريّة تزدهر بين الزوايا التواتيّة وزوايا البلدان الأخرى.

وهكذا فإنّ الزاوية التواتيّة نشأت من أجل أهداف دينيّة خالصة أهمّها: ترسيخ الإسلام الصحيح وأحكامه في نفوس المسلمين الجدد الذين ظلّ إسلامهم ناقصًا نتيجة جهلهم وبعدهم عن مراكز التوجيه الإسلامي، إضافةً إلى متابعة نشر الرسالة بين الشعوب التي لم تبلغها بعد.

وظلّت العلوم الدينيّة العمود الفقري للزاوية والمحور الذي تدور عليه، وحقق الأدب تطورًا واضحًا في ظلّ هذه الزاوية الدينيّة.